معنى العبادة والمراد من قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

كتبه غريب الديار بتاريخ الأحد ٩ رجب ١٤٤٢

يجب أن نعرف معنى العبادة في القرآن الكريم , لكي نفهم المراد من قول الحق تعالى :

< وما خَلَقْتُ الجن والإنس إلا ليعبدون > سورة الذاريات: ٥٦

وهذا ما سوف تعرفه من خلال المحاور التالية:

- معنى العبادة في اللغة العربية
- معنى العبادة في القرآن الكريم
  - العبادة في القرآن بمعنى الطاعة
  - العبادة في القرآن بمعنى الخضوع
- تعريف العبادة عند الفقهاء
- حقيقة العبادة
- المراد من قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون
- أنواع العبادة
- شروط قبول العبادة
- تحريف معنى العبادة وما ترتب عليه
- كيف نحقق عبادة الله تعالى في هذا الزمان

معنى العبادة في اللغة العربية

قال الفراهيدي في العين المجلد الثاني الصفحة ٤٨ :

عبد: العبد: الإنسان حرا أو رقيقا.

هو عبد الله, ويجمع على عباد وعبدين.

والعبد: المملوك, وجمعه: عبيد, وثلاثة أعبد, وهم العباد أيضا.

إن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله, والعبيد المملوكين.

وعبد بين العبودة, وأقر بالعبودية, ولم أسمعهم يشتقون منه فعلا, ولو اشتق لقيل: عبد, أي: صار عبدا, ولكن أميت منه الفعل.

وعبد تعبيدة, أي: لم يزل فيه من قبل هو وآباؤه.

وأما عبد يعبد عبادة فلا يقال إلا لمن يعبد الله.

وتعبد تعبدا, أي: تفرد بالعبادة.

وأما عبد خدم مولاه, فلا يقال: عبده ولا يعبد مولاه.

واستعبدت فلانا, أي اتخذته عبدا.

وتعبد فلان فلانا, أي: صيره كالعبد له وإن كان حرا. قال:

تعبدني نمر بن سعد, وقد أرى ... ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

وقالوا: إذا طردك الطارد وأبى (أن) ينجم عنك,

[أي]

لا يقلع فقد تعبدك تعبدا.

وأعبد فلان فلانا: جعله عبدا.

وتقرأ هذه الآية على سبعة أوجه: فالعامة تقرأ: وعبد الطاغوت, أي: عبد الطاغوت من دون الله. وعبد الطاغوت, كما تقول: ضرب عبد الله. وعبد الطاغوت, أي: صار الطاغوت يعبد, كما تقول: فقه الرجل, وظرف. وعبد الطاغوت, معناه عباد الطاغوت. جمع, كما تقول: ركع وسجد. وعبد الطاغوت, أرادوا: عبدة الطاغوت مثل فجرة وكفرة, فطرح الهاء والمعنى في الهاء.

وعابد الطاغوت, كما تقول: ضارب الرجل.

وعبد الطاغوت, جماعة, لا يقال: عابد وعبد, إنما يقال عبود وعبد. ويقال للمشركين: عبدة الطاغوت والأوثان, وللمسلمين: عباد يعبدون الله.

والمسمى بعبدة. والجزم فيها ة خطأ, إنما هو عبدة على بناء سلمة.

وتقول: استعبدته وهو قريب المعنى من تعبد إلا أن تعبدته أخص, وهم العبدى, يعني: جماعة العبيد الذين ولدوا في العبودة, تعبيدة ابن تعبيدة, أي: في العبودة إلى آبائه.

وأعبدني فلانا, أي: ملكني إياه.

وبعير معبد: مهنوء بالقطران, وخلي عنه فلا يدنو منه أحد. قال:

وأفردت إفراد البعير المعبد

وهو الذلول أيضا, يوصف به البعير.

والمعبد: كل طريق يكثر فيه المختلفة, المسلوك. والعبد: الأنفة والحمية من قول يستحي منه, ويستنكف. ومنه: فأنا أول العابدين

أي: الأنفين من هذا القول, ويقرأ العبدين, مقصورة, على عبد يعبد. ويقال: فأنا أول العابدين

أي: كما أنه ليس للرحمن ولد فلست بأول من عبد الله من أهل مكة.

ويروى عن أمير المؤمنين أنه قال: عبدت فصمت

أي: أنفت فسكت. قال:

ويعبد الجاهل الجافي بحقهم ... بعد القضاء عليه حين لا عبد

يمكن أن نستنتج من كلام الفراهيدي السابق، أن العبادة التي هي مشتقة من فعل عبد تعني الطاعة والخضوع والتذلل.

معنى العبادة في القرآن

في القرآن تأخذ كلمة العبادة نفس معانيها في اللسان، أي الطاعة والخضوع والتذلل، وإليك تفصيل ذلك.

العبادة في القرآن بمعنى الطاعة

يقول ربنا تعالى :

< أَلَم أَعهَد إِلَيكُم يا بَني آدَمَ أَن لا تَعبُدُوا الشَّيطانَ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبينٌ > [يس: ٦٠]

هنا سمى الله تعالى طاعة الشيطان عبادة له, وهي أمر محرم شرعا وعقلا, فالشيطان عدو لنا, وبالتالي يجب أن لا نطيعه, في المقابل, الله تعالى هو من أوجدنا من عدم, ورزقنا, ونحن ملكه, لذلك من الطبيعي أن نطيعه وحده, وقد ذكر ربنا تعالى هذا المعنى في قوله:

< إِنَّ اللَّهَ رَبّي وَرَبُّكُم فَاعبُدوهُ هذا صِراطٌ مُستَقيمٌ > [آل عمران: ٥١]

العبادة في القرآن بمعنى الخضوع والتذلل

من معان العبادة في لسان العرب الخضوع والتذلل, وهذا المعنى معنى شرعي نص عليه القرآن منها قوله تعالى:

< وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون > سورة الذاريات: ٥٦

والذي سوف نتناوله بشيء من التفصيل لاحقا إن شاء الله

ومنها قوله سبحانه وتعالى حاكيا عن فرعون في قوله:

< فَقالوا أَنُؤمِنُ لِبَشَرَينِ مِثلِنا وَقَومُهُما لَنا عابِدُونَ > [المؤمنون: ٤٧]

أي خاضعون لنا, وقد أكد موسى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في قوله مخاطبا فرعون:

< وَتِلكَ نِعمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَن عَبَّدتَ بَني إِسرائيلَ > [الشعراء: ٢٢]

أي جعلتهم خاضعين لك.

إن بني إسرائيل هم أحفاد يعقوب, وكان أجدادهم مسلمون لله تعالى وحده كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله:

‹ أَم كُنتُم شُهَداءَ إِذ حَضَرَ يَعقوبَ المَوتُ إِذ قالَ لِبَنيهِ ما تَعبُدونَ مِن بَعدي قالوا نَعبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبائِكَ إِبراهيمَ وَإِسماعيلَ وَإِسحاقَ إِلٰهًا واحِدًا وَنَحنُ لَهُ مُسلِمونَ › [البقرة: ١٣٣]

ولا شك أنهم كانوا بحسب دعواهم على دين أبيهم يعقوب، ومع ذلك فإنهم لما خضعوا لفرعون، واستسلموا لسلطانه كانوا عابدين له، ولو أنكرتها ألسنتهم، فالواقع يشهد أنهم خاضعين لغير الله تعالى

تعريف العبادة عند الفقهاء

في المصطلحات الفقهية يطلق الفقهاء العبادة على الشعائر التعبدية فقط ويفصلون بينها وبين سائر العبادة الأخرى التي تتجلى في المعاملات والحياة العامة، في فيقولون العبادات والمعاملات.

كما يفصلون بين الشعائر التعبدية وبين العبادات القلبية، التي هي مندرجة في باب المعتقد.

هذا التعريف القاصر للعبادة هو الذي الشائع بين الناس، فالناس تعتقد أن العبادة محصورة في الشعائر التعبدية فقط، وهذا له أثر سلبي جدا سنتحدث عنه عند الحديث عن تحريف معنى العبادة.

حقيقة العبادة

إننا إذا تأملنا معان العبادة في القرآن، نجد أن العبادة أشمل بكثير من أن تكون مجموعة شعائر يؤديها المرء في أوقات محددة، فبني إسرائيل لم تكن لهم شعائر تعبدية يتقربون بها لفرعون، ومع ذلك كانوا عابدين له

إن العبادة تذلل وخضوع دائم لله تعالى، أي أن العبادة هي الإسلام وهي الإيمان، فهذه المصطلحات الثلاثة مترادفة، أو لنقل أن الإيمان إنما يتجلى في حقيقة واحدة وهي العبادة المتصلة لله سبحانه.

يظهر هذا الأمر جليا في دعوة جميع الرسل أقوامهم، حيث كانوا يدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

< وَلَقَد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغوتَ فَمِنهُم مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنهُم مَن حَقَّت عَلَيهِ الضَّلالَةُ فَسيروا فِي الأَرضِ فَانظُروا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبينَ > [النحل: ٣٦]

بمعنى أن قرار الإسلام يترجم عمليا بعبادة الله تعالى وحده, أي الخضوع والتذلل المتواصل لله سبحانه وحده.

إذن قول الحق سبحانه و تعالى:

< وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون > سورة الذاريات: ٥٦

والمعنى أن الله تعالى لم يخلق الجن والانس إلا ليطيعوه وحده, ويخضعوا له وحده مستسلمين له, مخبتين, فهذه هي الغاية التي خلقوا من أجلها وعليهم أن يقوموا بها مهما كلفهم الأمر, بيان ذلك

المراد من الآية: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

< وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إلا ليعبدون مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أريدُ أَن يطعمون إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ > [الذاريات : ٥٦-٥٨]

بدأ الله هذه الآيات بواو الابتداء ثم ما النافية فقال "وما" ثم اتبع ما النافية قوله:

خلقت الجن والإنس

فصار الجملة " وما خلقت الجن والإنس " جملة تفيد نفي خلق الله للإنس والجن, ثم استثنى ربنا فقال " إلا " وهو أداة استثناء ثم قال " ليعبدون " مستخدما لام كي أي لغاية أن يعبدوه وهذا هو التوحيد فصار في الآية محذوف تقديره لغاية و تفسير الآية هو :

وما خلقت الجن والإنس من جل غاية إلا ليعبدون

هذا الأسلوب وهو الاستثناء بعد النفي هو أشد أساليب الحصر والتوكيد , وكثيرا ما يستخدم في كتاب الله من أمثلته قوله تعالى:

< وما أَنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اختَلَفوا فيهِ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ > [النحل: ٦٤]

أي لم ننزل عليك الكتاب لغاية غير أن تبين لهم الذي اختلفوا فيه وهداية ورحمة للمؤمنين, كذلك قوله :

< وما خَلَقتُ الجن والإنس إلا لِيَعْبُدُونِ > الذاريات : ٥٦

تعني أن رب العالمين لم يخلق الإنس والجن لأي غاية الا عبادته سبحانه, لذلك أي اشتغال بأي غاية سوى عبادة ربنا هو اعتداء يقوم به الإنسان لأنه اشتغال بهدف لم نخلق من أجله.

في الواقع يشتغل الخلق بغايات غير العبادة وأهم ما يشتغل به الإنسان هو طلب الرزق وطلب السلطة والنفوذ, فالإنسان يبدأ دوما في طلب الرزق فإذا أغناه الله تعالى بدأ في الطلب السلطة والنفوذ وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة في قوله:

< ما أريد مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو الْقُوَّةِ المَتينُ > الذاريات : ٥٧-٥٨

فطلب الانس للزرق وسعيه في تحصيله خارج إطار التعبد الذي سأتحدث عنه في الفقرة الموالية ليس هو ما يريده الله تعالى منه بل يريد منه أن يعبده , وأصلا هو من يرزقك سبحانه ولن تجد غير رزقك الذي كتبه الله تعالى لك فهو من بيده ملكوت كل شيء:

< وَكَأَيِّن مِن دابَّةٍ لا تَحمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرزُقُها وَإِيّاكُم وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ > [العنكبوت: ٦٠]

< ما يَفتَحِ اللَّهُ لِلنّاسِ مِن رَحمَةٍ فَلا مُمسِكَ لَها وَما يُمسِك فَلا مُرسِلَ لَهُ مِن بَعدِهِ وَهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ يا أَيُّهَا النّاسُ اذكُروا نِعمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم هَل مِن خالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرضِ لا إِلهَ إِلّا هو فَأَنّى تُؤفَكونَ > [فاطر: ٢-٣]

ومن ثم فإن اشتغال الإنس والجن بطلب الرزق هو اشتغال بما لم يؤمر به, ومع ذلك لن يفيد شيئا لكون الرزق رزق الله تعالى لا يرزق أحد سواه.

مفهوم العبادة كما رأينا يشمل الخضوع والطاعة، ولذلك أحيانا يكون طلب الرزق عبادة في حد ذاته إذا كان استجابة لقوله سبحانه:

﴿ فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِروا فِي الأَرضِ وَابتَغوا مِن فَضلِ اللَّهِ وَاذكُرُوا اللَّهَ كَثيرًا لَعَلَّكُم تُفلِحونَ ﴾[الجمعة: ١٠]

القوة والسلطة والنفوذ والتمكين في الأرض عند الله تعالى لذلك من العبث طلبها بمعصيته سبحانه

قد يعطي الله تعالى السلطة للكافر كما أعطاها لفرعون ليزيدهم طغيانا وكفرا

أنواع العبادة

قلت آنفا أن العبادة خضوع متواصل لله تعالى، وهذا يمكن أن ينقسم عمليا إلى عدة أقسام:

العبادة القلبية

وتعنى ذكر الله عز وجل، وخشيته والتوكل عليه وحبه سبحانه وحب من يحبه، وسائر الأعمال القلبية التي أمر الله تعالى بها والتي تجسد الخضوع والتذلل لله عز وجل

العبادة باللسان

هذا النوع من العبادة يمكن تعريفه بأن إفصاح عن العبادة القلبية، فذكر الله تعالى باللسان يجب أن يكون مصحوبا بذكره بالقلب، وإلا لما كان ذكرا لله عز وجل.

هذا النوع من العبادة يندرج فيه صور كثيرة من أهمها الذكر، وقراءة القرآن وغير ذلك مما أمر الله تعالى به

العبادة بالجوارح

وهذا النوع يشمل كل مظاهر الخضوع والتذلل لله سبحانه المتجلية بالعمل، مثل الصلاة والصوم وغيرها، وينقسم إلى نوعين

عبادات محددة: وهي الشعائر التعبدية المحددة من الله تعالى ، كالصلاة والصوم وغيرها.

عبادات تركها اللّه تعالى عامة مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, والهجرة وغيرها مما أمر اللّه به إجمالا يفعله المرء بحسب استطاعته.

شروط قبول العبادة

العبادة هي الخضوع والتذلل, يجب أن يخضع المرء لله فيها بحيث يؤديها بالشروط التي افترض اللّه عليه والتي هي :

1- إفراد اللّه بالعبادة وهذا ينقسم إلى قسمين, الأول إفراد اللّه بالعبادة مطلقا مما يعني السلامة من الشرك, فالعبادة لا تقبل من مشرك, والدليل قول الحق سبحانه:

﴿ وَقَدِمنا إِلى ما عَمِلوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلناهُ هَباءً مَنثورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]

و الدليل الثاني أن تكون خالصة لله عز وجل, فالله لا يقبل إلا خالصا

2- أن تؤدى كما أمر اللّه عز وجل, إن كانت مما حدد اللّه من شعائر, وهذا أمر طبيعي فالعبادة هي الطاعة, والطاعة تقتضي أن تفعل ما أمرك اللّه به كما أمرك, فإذا لم تفعله كما أمرك لم تكن أطعته, ومن ثم فإنك لم تحقق العبادة أصلا.

تحريف معنى العبادة وما نجم عنه

إن معاني العبادة السابق ذكرها هي معان الكلمة في اللسان وفي القرآن, وهي التي خلقنا اللّه من أجل أن نصرفها له سبحانه وحده, فلا نطيع إلا إياه ولا نخضع إلا له سبحانه, ومن صرفها لغير اللّه مشرك.

فإذا تم تحريف كلمة العبادة عن المعاني التي وضعت لها, لاشك أن المرء لن يستطيع أن يحققها في حياته نظرا لجهله بها, ولأمكن وقوعه في الشرك الصريح دون أن يشعر.

وهذا ما تم بالفعل حين حرفوا معنى العبادة عن الطاعة والخضوع والتذلل, وقالوا:

العبادة اسم جامع لما يحبه اللّه ويرضاه

وإن كانت العبادة فعلا ما يحبه اللّه ويرضاه, إلا أنك حين تقرأ هذا التعريف لا تفهم بالضبط ماهي العبادة على وجه التحديد.

ومن هنا يدخل الشيطان فيصور لك أن العبادة محصورة في الشعائر, ولا علاقة لها بالطاعة أو الخضوع بشكل مطلق, فالتعريف لم يشر إلى الطاعة والخضوع بشكل صريح.

هذا الأمر في غاية الخطورة لأن صاحبه قد يقع في الشرك الصريح بخضوعه لغير اللّٰه وهو يعتقد أنه يحسن صنعا, مثال ذلك موالاة المشركين المحاربين لله ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم.

كما يفعل السلفيون العلميون أمثال المداخلة الذين ينتشر بينهم هذا التعريف, فالواحد منهم لا يعلم أن الإصرار على المعصية كفر كما سبق ومر معنا, كما أنه لا يرى تعطيل شرع اللّٰه وعدم العمل به كفر مناف لتحقيق العبادة لله, لأن التعريف الذي يعرف للعبادة لا يوضح له ذلك.

ومن ثم فإن الطواغيت المحاربين لله ورسوله بحسب زعمه مسلمون لهم حق السمع والطاعة, وهذا كله ما كان ليكون لولا هذا التحريف الذي يبدو في ظاهره سهلا ولكنه في الحقيقة تحريف للدين كله.

كيف نحقق عبادة الله في هذا الزمان

إننا إذا خضعنا لغير اللّٰه عز وجل نكون عابدين له, وإن لم نصرح بذلك, فالعبرة بحقيقة واقعنا, والواقع يشهد أننا نخضع لكثير من السلطات دون إذن من اللّٰه, من ذلك الخضوع لسلطة المجتمع, وسلطة الدولة, وسلطة التراث, وكل تلك السلطات التي نخضع لها بشكل أو بآخر.

إن الخضوع لغير اللّٰه شرك بالله, وصاحبه مصيره النار والعياذ بالله, وقد بين اللّٰه هذا المعنى في قوله:

› إِنَّ الَّذينَ تَوَفّاهُمُ المَلائِكَةُ ظالِمي أَنفُسِهِم قالوا فيمَ كُنتُم قالوا كُنّا مُستَضعَفينَ فِي الأَرضِ قالوا أَلَم تَكُن أَرضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِروا فيها فَأُولئِكَ مَأواهُم جَهَنَّمُ وَساءَت مَصيرًا ‹ [النساء: ٩٧]

فظلمهم لأنفسهم يكمن في خضوعهم لسلطان غير اللّٰه, ولا حجة لهم في الاستضعاف إذا كان بإمكانهم الهجرة, لذلك مصيرهم النار, ولا يستثنى غير الذين لا يقدرون على الهجرة كما أخبر اللّٰه في الآية الموالية

‹ إِلَّا المُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلدانِ لا يَستَطيعونَ حيلَةً وَلا يَهتَدونَ سَبيلًا ۝ فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعفُوَ عَنهُم وَكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفورًا › [النساء : ٩٨- ٩٩]

نستنتج مما سبق، أن الله خلقنا لنعبده وحده، أي نطيع إلا إياه، ولا نخضع إلا له، وعلينا أن نحقق هذه الغاية بكل ما أوتينا من قوة، ولو كلفنا الأمر الخروج إلى أرض الله الواسعة إذا كان البقاء في المدينة يفرض علينا الخضوع لغير الله، كما بينت الآية السابقة، وكما أشار رسول الله إلى ذلك في قوله:

« يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم، يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن »

الحديث ورواياته وطرقه ورواته هنا